دور الهوية في بناء الخبر في السرد العربي القديم

دراسة في (نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة) للقاضي التنوخي

الاستاذ الدكتور
لؤي حمزة عباس
كلية الآداب / جامعة البصرة

مساعد باحث
وليد مزهر انتيش
كلية الآداب / جامعة البصرة

ملخَّصُ البحث:

يناقشُ البحثُ دور الهويةِ في بناءِ الخبرِ في السَّردِ العربيّ القديم ، وكيفَ انعكسَ أثرُها على مؤلفاتِه ، وكيفيَّة تعاملِ مؤلفِ السَّردِ وهو ينتقي أخبارَه ويبوبُها ويوجِّهُها على وفقِ معطياتِ الهويةِ وتأثيرِها ، إذ تؤدي الهويةُ دوراً فاعلاً في صياغةِ أفكارِ الفردِ وسلوكهِ ، ورؤيتِه للماضي والحاضرِ والمستقبل ، فتحدِّدُ المجموعاتِ التي ينتمي إليها ؛ فيدافع عنها ويفخر بها ، مثلما تحدِّدُ الآخر وكيفيةَ التعاملِ معه.

وعلى هذا المنوال ، كان القاضي أبو علي المحسن بن علي التنوخي في كتابهِ (نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة) ، موضوعَ البحث ، فقد فرضتْ الهويةُ هيمنتَها على أخبارِهِ ، فكان مدافعاً عن انتماءاتِهِ بتعدُّدِها ، ورافضاً للآخر متجنياً عليه في الغالب ، متقبلاً له في القليلِ من أخبارِهِ ، وهو في هذا جزءٌ من نظامٍ سارَ عليه المؤلفون، وإنْ بتفاوتٍ لا يشكِّلُ فارقاً كبيراً من مؤلِّفٍ الى آخر.

لقد مثَّلَ التنوخي عينةً قابلةً لاستخلاص أثرِ الهويةِ في بناءِ الأخبارِ في السردِ العربي القديم تعطي نتائجَ قابلةً للتطبيقِ على المؤلفاتِ الأخرى ، وتنتجُ صورةً واضحةً لذلك الأثر.

The Role of Identity in News Construction in Old Arabic Narration: A Study in Al- Tanookhi's Nishwar Al- Muhadherah wa Akhbaar Al- Muthakera

Prof. Dr .
Lo'ay Hamza Abbas

Asst. Researcher
Waleed Mizher Intaish

University of Basra/College of Arts

Abstract:

This paper discusses the role of Identity in news construction in old Arabic narration, and how this role is reflected in Al-Tanookhi's books. It deals with how the author manipulated the narration by choosing, classifying and directing his news under the influence of his Identity, for the latter plays an active role in shaping the individual's thoughts and behavior, as well as his/her view to the past, present and future. It also specifies the groups to which he/she belongs and it also specifies the 'Other' and the way to deal with it.

The paper addresses this issue in Al- Tanookhi's Nishwar Al- Muhadherah wa Akhbaar Al- Muthakera. His 'news' are dominated by his Identity, for he was a fierce defender of his multiple affiliations, often unjustly rejecting the Other, while only rarely accepting it. Al-Tanookhi is thus following in a tradition of writers, a tradition that was reproduced with only minimal differences. Al-Tanookhi represents a sample case for how Identity forms news, with the results of this study being applicable to other writers as well.

مَدخَــلٌ :

شكَّل الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي المعقد الذي عاشه المجتمع في القرن الرابع الهجري تحدياً كبيراً للإنسان العربي عموما وللمثقف بصورة خاصة ، وهي تعقيدات شملت جوانب الحياة المختلفة آنذاك.

ففي الواقع السياسي كان الصراع على السلطة على اشدَّه ، والعنصر غير العربي يتحكم في خلع الخليفة وتنصيب آخر متى شاء ، فلابيعة ولاشورى ولا اهل حل وعقد ، وفي الواقع الاقتصادي كان التفاوت بين الفقراء ، وهم يشكلون غالبية ، والأغنياء سمة الواقع ، وفي الجانب الاجتماعي كان المجتمع في علاقاته ونظمه في ما يشبه الفوضى ، وهو يعيش انفتاحا على الامم الاخرى التي دخلت الدين الاسلامي من دون أن تتخلى عن عاداتها وثقافاتها ، اما في الجانب الثقافي فكان الواقع متوهجا يشهد حركة علمية وتأليفاً وترجمةً متطورة ، ولذلك عوامله وأسبابه التي تتطلب الكثير من المراجعة والدراسة لفهمها والوقوف على سماتها الفاعلة في مجال سوسيوثقافي.

ومنذ انهيار الدولة الأموية التي كانت تعتمد العنصر العربي في ادارة شؤون الدولة[١]، ومجيء بني العباس الى سدة الخلافة معتمدين على غير العرب في بسط نفوذهم ، شكلت الهوية القضية الاولى في اهتمام الفرد والمجتمع آنذاك ناهيك عن تشكل الفرق والمذاهب بفعل اتساع الحركة العلمية والثقافية مرة وبسبب الخلافات والفتن التي حدثت في القرون السابقة مرة أخرى ، وعلى الرغم من ان سؤال الهوية لم يكن غائبا قبل ذلك فهو "سؤال مركزي يتوارى ويحضر ، يتخايل ويغيب ، يقوى ويضعف وفق السياق والظروف والحيثيات لكنه يبقى في كل الحالات انشغالا مركزيا بامتياز"[٢] ، لكنه شكَّل ابَّان القرن الرابع حضوراً لافتاً في ظلِّ غياب أهم عاملين من عوامل الهوية اللذين ورثهما العربي وهما الدين واللغة اللذان لم يعودا فاعلين في حركة المجتمع خاصة في إدارة الدولة؛ فالمتحكمون بالسلطة اجانب[٣] والخليفة منشغل بخموره وجواريه الا في القليل النادر.

عزَّزت من حضور سؤال الهوية حالةُ الفِرقة التي تعيشها الأمَّة فقد "تفرقت أهواء اهلها واختلفت آراؤهم وصاروا فِرَقا كثيرة ومذاهب متباينة"[٤]، تعيش فيما بينها حالة صراع متواصل الى حد ان كل فرقة كانت تبحث عما يميزها عن غيرها، فـ"ذهب اتباع كل فرقة الى المغالاة في

الاستقلال والتمايز واظهار التباعد ، حتى ان الواحد صار يبحث عما يفرقه عن غيره ويتكلف كل ما من شأنه أن يميزه عنه عقيدة وفكرا وطقسا وشعائر"[٥].

وفضلاً عن ذلك ، كانت الأمة تواجه أخطاراً عدة أولها: من الخارج فثمة أعداء يشنون هجماتهم بلا هوادة على ثغور المسلمين ، وثانيها: صراع على السلطة يقوّض استقرارها[٦]، وثالثها: فقر وحاجة تصيب غالبية المجتمع ، ورابعها: ثورات ، وخامسها: تشتت الدولة الى دويلات صغيرة، وسادسها: تفرق الدين الواحد الى مذاهب يكفر بعضها بعضا ، بل ويستحل بعضها دم البعض...الخ. أمام كل هذا كان لابد أن يحضر سؤال الهوية ، واذا كان كلٌ يبحث عن هويته بطريقة ، واذا كانت الهوية "قضية متجذرة وبؤرة اشكالية اساسية في كل المشاريع الثقافية والفكرية بشكل عام"(٧) ، بل هي ركيزة هامة من ركائز التأليف ؛ فان كتاب النشوار يمكن عده كتابا للبحث عن الهوية وقد جدَّ القاضي التنوخي في البحث عن هوية الأمة وهويته الشخصية في الآن ذاته من خلال تأليف كتاب النشوار.

الهوية /المفهوم :

لا تتشكل الهوية في النفس ولاتظهر الى الوجود الا لحظة الأزمة ، ولحظة الاحتكاك بالآخر، لكنها تظل عصية على الامساك بها فهي "ليست معطىً ثابتا ، أو مبدءاً مفارقا أو وجودا ميتافيزيقيا أو أصلا أوليا أو نهائيا ، وإنما هي حصيلة ونتيجة يُعاد بناؤها وتنميتها واكتشافها باستمرار"[٨] ، وهو بناء متواصل واكتشاف مستمر في كل لحظة يحتاج فيها الفرد أو المجموعة الى الاعلان عن نفسها أو تميزها عن الاخرين على وفق عوامل عدة وتلك هي الهوية في أبسط تعريفاتها "حقيقة الشيء من حيث تميزه عن غيره"[٩] ، لكن (الشيء) هذا يتخذ أكثر من شكل على وفق تعدد ال(الغير) ؛ إذ انها يمكن "أن تشير الى معنىً فردي أي تخص الفرد وما يملكه من خلفية ثقافية وقيم ، وقد تشير الى مجتمع وهويته ومركزه ، وقد تشير الى أمة ومكانته بين الامم"[١٠]، وعليه فان مفهوم الهوية لايمكن مقاربته من زاوية واحدة ذلك أنها "تتعلق بفهم الناس وتصورهم لأنفسهم ، ولما يعتقدون انه مهم في حياتهم"[١١] .

ان ابراز هوية ما والارتباط بمجموعة ما يفرضهما عاملان فردي مصدره القناعة الشخصية القائمة على الثقافة والاعتقاد والتربية وظروف النشأة وطريقة التفكير، وجماعي يقوم على حضور الاخر ووجود أزمة ما، وللعامل الخارجي الجماعي أهميته في تكوين العامل الداخلي الفردي اذ لايفكر المرء بهويته الا بوجود آخر، ووجود أزمة تضطره الى تلمس دفء

الانتماء الى ما يعزز الأمان لديه وهو يواجه الآخر؛ فـ"ليست هناك هوية في ذاتها ولا حتى لذاتها ، وحسب ، الهوية هي، دوما، علاقة بالآخر ، وبتعبير آخر ، الهوية والآخرية متصلان ، الواحدة بالأخرى"(١٢) ، فالهوية على وفق تحقق شرط الاخر "بناء يبنى في علاقة تقابل فيها مجموعةٌ مجموعاتٍ أخرى تكون في تماس معها"(١٣) ، ان هذا البناء ما كان ليعلو من دون حضور الاخر واحتكاكه بالانا، اذ ان الأنا بلا حضورٍ للآخر لن تفكر بهويتها، الهوية نتاج الاختلاف والمغايرة ، وسؤال الهوية لايثار "في شخصية تكتفي بعالمها، وتنكفئ فيه ، ففكرة الهوية تنبثق حينما تتخطى الأسوار الثقافية للأنا، وتواجه بالمغايرة الكلية ، وبالتعدد سؤال الهوية تفرضه الحاجة للمقارنة بين فكرتين وعالمين"(١٤).

ولاشك ان الهوية ليست خيارا يقبله المرء أو يرفضه ، انه واقع تفرضه طبيعة الحياة ووجود المختلف وحاجة الانسان الى الانتماء.

وللهوية ايجابياتها التي تغني الانسان مثلما انَّ لها سلبياتها التي تفرضها طبيعة العلاقة مع المختلف وكيف ينظر اليه.

فللهوية أهميتها في حياة الفرد والمجتمع ذلك انها " تمثل الذات الخاصة بجماعة أو أمة أو طائفة أو مجتمع معين من دون سواه، فهي المبرز الثقافي الذي به تتعارف الذوات المحلية والعالمية"(١٥) ، هذا التعارف هو الاستثمار الحقيقي للهوية ، ومن أهم ايجابياتها ، فهو ثمرة الانتماء وتوظيف للعلاقة مع الاخر وهو ما أكد عليه القران الكريم: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ "(١٦) حيث أكدت هدف الاختلاف وهو التعارف بما يثمر سعادة البشر ، " فقد جعلنا الله شعوبا وقبائل لنتعارف، والتعارف هنا هو أساس الهوية ، اذا انه لا يمكن أن يكون هناك شعور بالهوية من دون مقارنة ""الأنا" بـ"الآخر" وهنا عودة عميقة الى الهوية الانسانية التي هي أساس التعارف والتواصل مع الآخر لا الرغبة المجردة في الاختلاف عنه"(١٧) ، فضلا عن ذلك فان تحديد الهوية "يعرفنا بأهدافنا التي نريدها والأسلوب الذي نتوصل به الى هذه الأهداف"(١٨)، فما تمنحه الهوية من شعور يمكن أن يكون "مصدرا ليس للفخر والبهجة ،بل أيضا للقوة والثقة"(١٩)، وهي عوامل متى ما استثمرت فإنها قادرة على تفجير امكانات الفرد والمجتمع بما يثمر في تحقيق الاهداف التي تحقق تقدم المجتمع ورفاهية الفرد.

وفي مقابل ذلك فان الهوية لا تخلو من السلبيات اذا لم يحسن التعامل معها، وقد تكون هذه السلبيات مدمِّرة ، ذلك ان الهوية "يمكن أن تقتل، وبلا رحمة، ففي حالات كثيرة يمكن لشعور قوي . ومطلق . يقتصر على جماعة واحدة، أن يحمل معه ادراكا لمسافة البعد والاختلاف عن الجماعات الاخرى. فالتضامن الداخلي لجماعة ما يمكن ان يغذي التنافر بينها وبين الجماعات الاخرى"[٢٠] ، وهي تغذية تدفع باتجاه البطش بالآخر من دون التفكير بالأسباب أو العواقب ، وهو بطش يحركه وهم امتلاك الـ (نحن) للحقيقة المطلقة وتصنيف الآخر بالباطل ومن ثم لا وجود لتعايش معه ولا حلَّ الا بمحوه من الوجود، وعندها يُفسح المجال لنزاعات مدمرة تقوم على الكراهية بما ينذر بتدمير حاضر المجتمعات ومستقبلها.

الانتماء:

تمثل مقولة سقراط "اعرف نفسك"[٢١] واحدة من أهم المقولات التي انتجها الفكر الانساني، ذلك ان معرفة النفس هي اللبنة الأساس في بناء هوية الانسان، وتحديد موقعه في الحياة وموقفه من قضايا عصره، فمع معرفة دقيقة للنفس (الأنا) يكون التعامل مع الهوية وما تفرضه من استحقاقات انتماء وتعامل مع الآخر بوعي ومن دون تحيز ؛ "لأن الانسان لا يستطيع أنْ يحدد موقفه من غيره قبل أنْ يحدد موقفه من نفسه من هو؟ ومن يكون؟ وماذا يريد؟"[٢٢]، ولا يمكن لإنسان ومن ثم لمجتمع أنْ يحددا هويتهما من دون الاجابة على هذه الأسئلة وهي إجابة تقوم على المعرفة، ومن قبل نصح الأمام علي بن أبي طالب (ع) أحد أصحابه قائلا: " ياكميل ما من حركة الاَّ وأنت مُحتاج فيها الى معرفة"[٢٣]، ولاشك في أن تحديد الانتماء واتخاذ موقف موضوعي من الآخر من أهم حركات الانسان في الحياة، فبين مواجهته وتقبله خيط رفيع لا يُهتدى اليه الا بالمعرفة.

ان كون الانسان في مجتمع يحتم عليه ان ينتمي الى هذه الفئة او تلك أو اليهما معا، وعملية الانتماء عملية معقدة وتتطلب خضوعا من الفرد مرة ورغبة مقترنة بوعي عميق مرة أخرى.

يولد الانسان وهو خالي الذهن لا يعلم شيئا عن الانتماء ولا عن الاخر وقد اكد القرآن هذه الحقيقة بقوله: "وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ "[٢٤]، فلكي يتمكن من التعامل مع واقعه وتحديد هويته فانه يحتاج الى تربية طويلة، وعملية تعلم مجهدة "وغالبا ما يكون تعلمه ضمن بيئة محلية لها قيمها وأعرافها ونظام حياته الخاص وهو ما يجعل الهوية دائمة الحضور والتوارث والاستمرار"[٢٥]،

ومن ثمّ فهناك انتماء تفرضه البيئة التي تقوم باحتضان الانسان وتربيته وهو ما أشار اليه البحث بالخضوع، وهناك انتماء واعٍ يختاره المرء بإرادته.

ان تعدد الانتماء هذا يوصل بالضرورة الى تعدد الهويات ،مثلما يشير الى تعدد الآخر، بالنسبة للشخص الواحد فهو ينتمي "الى العديد من الجماعات المختلفة ، بطريقة أو بأخرى ، وكل من هذه الجماعات يمكن أن تمنح الشخص هوية يحتمل انها مهمة بالفعل"(٢٦)، ان هذا التعدد في الهويات هو أمر منطقي تفرضه طبيعة الحياة "فكل انسان له مواطنة، ومكان إقامة ،وأصل جغرافي، ونوع جنسي ، وطبقة ، وانتماء سياسي ، ومهنة ، ووظيفة ، واهتمامات رياضية ، وذوق موسيقي ، والتزامات اجتماعية ، الخ ، وكل هذا يجعلنا في جماعات متنوعة ، وكل هذه الجمعيات التي ينتمي اليها هذا الشخص في وقت معا ، تمنحه هوية معينة ، وليس فيها ما يمكن أن يؤخذ على أنه الهوية الوحيدة للمرء"(٢٧).

وهذه الانتماءات تختلف من حيث الحجم والوضوح والقوة والتأثير من دائرة لأخرى فهي "تكون أكثر وضوحا كلما اتجهنا الى الفرد ، وهو ما يعني ان خصائص الهوية تقل كلما اتجهنا الى الدوائر الكبيرة ان الفرد يمكن تحديد هويته الشخصية وحتى البصرية بسهولة ، بينما يبدأ ما هو مشترك في التناقص كلما اتجهنا الى الاسرة ثم العائلة والمجتمع والثقافة والإنسانية"(٢٨). لكن، وبغضِّ النظر عن أهمية انتماء عن آخر وعن قوته ووضوحه ؛ فإننا ، وفي كل الاحوال ، "لا نستطيع فصل "الأنا" عن "الآخر" لأنَّ الهوية تحقق شعورا غريزيا بالانتماء الى الجماعة والتماهي معها"(٢٩).

الانتماء في نشوار المحاضرة:

تعددت الهويات التي أعلنها المؤلف بتعدد انتماءاته التي توزعت بين قبيلته تنوخ ووظيفته في الدولة بوصفه قاضيا يتولى القضاء على مناطق عدة ، وهو المعتزلي ، العربي المسلم ، فضلا عن اهتمامه الكبير بالبحث عن هوية الأمة وهو المثقف الباحث عن عودة الوجه المشرق للأمة. وعلى وفق ذلك يمكن قراءة الهوية من خلال الانتماء في النشوار كما يأتي:

أولاً: الهوية القبلية:

أكد المؤلف انتماءه الى قبيلته (تنوخ) ويظهر ذلك من خلال ذكر العديد من أسماء أبنائها في كتابه حيث حفلت أسانيده بالعديد من الرواة المنتمين الى هذه القبيلة ، فضلا عمن ذكرهم في أخباره من التنوخيين بصورة تشكل ظاهرة لافتة في الكتاب ، فلقد توزع التنوخيون في النشوار

بين راوٍ ، أو موضوع للأخبار ، مثل القاضي أبي الحسن بن أبي طالب بن أبي جعفر بن البهلول وهو تنوخي والخبر يتحدث عن جد الراوي وهو أبو جعفر بن البهلول التنوخي [٣٠] ، وكذلك روى عن أبي الحسن أحمد بن يوسف بن يعقوب التنوخي[٣١] ، وغيرهم الكثير ، ولعل أبرز التنوخيين حضورا كان والده الذي يذكره دائما بالترحم عليه او بالترضي عنه مثل قوله "حدثني أبي ، رضي الله عنه قال"[٣٢] ففي خبر: (إن الفتى من يقول ها أنذا) يروي عن أبيه: "جرى في مجلس أبي رضي الله عنه، بحضرته، يوماً، ذكر رجل كان صغيراً فارتفع. فقال بعض الحاضرين: من ذاك الوضيع؟ أمس كنا نراه بمرقعة يشحذ. فقال أبي: وما يضعه أن الزمان عضه، ثم ساعده، كل كبير إنما كان صغيراً أولاً، والفقر ليس بعارٍ، إذا كان الإنسان فاضلاً في نفسه، وأهل العلم خاصة لا يعيبهم ذلك. وأنا أعتقد أن من كان صغيراً فارتفع، أو فقيراً فاستغنى، أفضل ممن ولد في الغنى، أو في الجلالة، لأن من ولد في ذلك، إنما عمل له غيره، فلا حمد له هو خاصة فيه، ومن لم يكن له فكان، فإنما بجده أو كده، وصل إلى ذلك، فهو أفضل من أن يصل إليه ميراثاً، أو بجد غيره، وكد سواه."[٣٣]. يرسم الخبر بإتقان صورةً للاب تمنحه هوية مميزة ، فهو القاضي الحكيم الذي تضئ حكمته اذهان جلسائه ، وصاحب الخبرة الذي ينطق ببلاغة عالية نابعة عن تجربة ومعرفة موجها افكار الاخرين بوجوب النظر الى الامور بطريقة سليمة ، من دون ان يغفل المؤلف ان يرفع مقام ابيه من خلال افتتاحه الخبر بالترضي عليه.

ثانياً : الهوية الوظيفية :

وهي كونه قاضيا، ونجد في هذه الهوية مدحا للقضاة وعدلهم ومكانتهم في الدولة وفي الوقت ذاته قدم المؤلف نقدا لعدد من القضاة لعل مرده حرصه على تحقيق نهضة في الدولة وحين يكون هنالك خلل في هذه الطبقة فانه من الصعب اصلاح بقية الاماكن في الدولة ففي خبر: القاضي أبو محمد البصري والد القاضي أبي عمر يؤدب مملوكاً من وجوه مماليك الخليفة المعتضد): "حدثني أبي رضي الله عنه، قال: سمعت القاضي أبا عمر يقول: قدم خادم من وجوه خدم المعتضد بالله، إلى أبي في حكم، فجاء فارتفع في المجلس. أمره الحاجب بموازاة خصمه، فلم يفعل إدلالاً بعظم محله في الدولة. فصاح أبي عليه، وقال: هاه، تؤمر بموازاة خصمك، فتمتنع؟ يا غلام، عمرو بن أبي عمرو النخاس الساعة، لأتقدم إليه ببيع هذا العبد، وحمل ثمنه إلى أمير المؤمنين. ثم قال لحاجبه: خذ بيده، وسار بينه وبين خصمه.فأخذ كرهاً وأجلس مع خصمه.

فلما انقضى الحكم، انصرف الخادم، فحدث المعتضد بالحديث، وبكى بين يديه. فصاح عليه المعتضد، وقال: لو باعك لأجزت بيعه، ولما رددتك إلى ملكي أبداً، وليس خصوصك بي، يزيل مرتبة الحكم، فإنه عمود السلطان، وقوام الأديان."[٣٤]

يعبر الخبر عن هوية القاضي مصوراً اياه بالذي لا يخشى في الحق احدا ، فمهمته اقامة العدل والحكم بين الناس من دون تمييز لأحد على خصمه مهما كانت درجة الخصم ومكانته في الدولة وقربه من السلطة ، ان حزم القاضي لم يجعل الخادم ينصاع لأمره فحسب بل جعله ينال مدح الخليفة، مما يجعله قدوة للقضاة ان يحذوا حذوه. مختتما بقول المعتضد لخادمه: (وليس خصوصك بي، يزيل مرتبة الحكم، فإنه عمود السلطان، وقوام الأديان) وهو قول لا ينتصر لفعل القاضي الشجاع فحسب بل يعبر خير تعبير عن أهمية العدالة في المجتمعات.

ثالثاً: الهوية المذهبية:

أكد المؤلف انتماءه الى المعتزلة وتكاد هذه الهوية أن تكون أبرز الهويات التي أكد انتماءه اليها ونافح عنها ، وهاجم خصومها من الفرق الاخرى ، وهي على عكس الهويات الأخرى ، قدمها هويةً نقيةً ، وقدم الاخر المختلف معها بوضوح، ومن العجب ان المؤلف الذي قدم تسامحا كبيرا في التعامل مع الاخر في انتماءاته الاخرى كلها ، لم يكن متسامحا قط مع الاخر هنا. ولم تؤكد أخبار المعتزلة هنا اعتزاز المؤلف بهذا الانتماء ، فحسب ، بل ان ذكرهم مقرون دائما بعلو كعبهم على غيرهم ، فهم أهل الحق[٣٥] ، ومن بركة المعتزلة أن أبناءهم لا يخافون الجن[٣٦] ، وإذ يتفق ان يدفن كبير المعتزلة أبو هاشم الجبائي مع أبي بكر بن دريد فان البكاء كان طويلا على الكلام والعربية[٣٧]، ويشدد على قوة المعتزلة وجهرهم بعقيدتهم وفي تحدٍ للسلطة يروي خبرا يبين فيه قوة المعتزلة وكثرة عددهم ومهابة السلطان منهم:

(خلاف بين المعتزلة وبين غوغاء من العوام) "وقال رجل من أصحاب إسماعيل بالبصرة: أن القرآن مخلوق، بحضرة غوغاء من العوام، فوثبوا عليه، وحملوه إلى نزار الضبي . وكان أميراً على البصرة، فحبسه.

فطاف إسماعيل على المعتزلة، فجمع منهم أكثر من ألف رجل، وبكر بهم إلى باب الأمير، فاستأذن عليه، فأذن له.

فقال: أعز الله الأمير، بلغنا أنك حبست رجلاً لأنه قال: أن القرآن مخلوق، وقد جئناك، وكلنا يقول: أن القرآن مخلوق، وخلفنا من أهل البلد أضعاف عددنا، يقولون بمقالتنا، فإما حبست جميعنا مع أخينا، أو أطلقته معنا.

قال: فعلم أنه متى ردهم ثارت فتنة لا يأمن عواقبها، وإن الرأي يوجب الرفق بهم. فقال: بل نطلقه لكم. فأطلقه، وانصرفوا به عداوةً."[٣٨].

يبرز الخبر هوية المعتزلة بوصفها الفرقة الشجاعة التي تجاهر برايها على الرغم من مخالفته لراي السلطة ومقدرتها على قهر السلطة واخراج ابنها من السجن وقد قدم الخبر مجموعة صفات للمعتزلة بحسب تصور المؤلف:

أ- انهم اهل عقل وحكمة ومخالفوهم غوغاء

ب- كثرة عددهم ففي زمن قصير استطاع اسماعيل ان يجمع اكثر من الف رجل منهم

ج- خوف الوالي منهم وانصياعه لطلبهم.

د- متى غضب المعتزلة ثارت فتنة لاتؤمن عاقبتها.

رابعا : هوية الأمة :

وهي من أهم الهويات التي التفت اليها المؤلف ويكاد أن يكون عمله موجَّها للتأكيد عليها، فلا يمكن للأمة أن تنهض وتستعيد أمجادها السابقة الا بعد أن تتعرَّف على هويتها، لكنه ، وهنا تبدو مفارقة، لم يبرزها بالوضوح الذي تعامل به مع هويته المذهبية ، على الرغم من اشاراته في مقدمته التي يستشف منها سعيه للتغيير وهو ما سبقت الاشارة اليه بوصفه مشروعا للنهوض بالأمة، ولعله كان يرى ان التأسيس لبناء الدولة يجب أن يقوم على اسس مذهب المعتزلة وهو الحل لنهوض الأمة ، بوصفه ، من وجهة نظر المؤلف وتبعا لاعتقاده ، طريقا مستقيما يوصل الى الله ويضع حلولا للنهوض بالأمة.

ان أهم عاملين يجب توفرهما في الدولة هما اللغة والدين اي العربية بماهي قيم واخلاق وأعراف وتقاليد تقوم على الكرم والفروسية والدفاع عن الجار ، والدين بوصفه منظومة من القوانين والاعتقادات والأخلاقيات التي تسهم في تحقيق السعادة في الدنيا، والنجاة في الآخرة ، ومتى اضيف العلم الى هاذين العاملين يصبح المجتمع قد سلك الطريق الصحيح نحو الكمال وتكون الدولة قد بنيت على أسس متينة واكتسبت هويتها ، وأهم ما ركز عليه المؤلف من قيم هي الكرم وقد سبق للبحث أن تناولها لأن الكرم كان من أهم صور الهوية العربية ، لقد كان محتفيا بالبرامكة لانهم كانوا الصورة الاكثر وضوحا للكرم كما في أخباره الثلاثة الأولى التي يفتتح بها كتابه ، ولا يفوت في كتابه فرصة يحتفي فيها بالكرم الا واستثمرها كما في خبره :

(أبو محمد المهلبي الوزير يتحدث عن الكرم) "سمعت أبا محمد المهلبي، يقول يوماً، في شيء جرى بحضرته، من ذكر الكرم والكرام، بين جماعة من الناس: كرم الكريم يستر عليه، ما تكشفه النوائب من سوءاته."[٣٩] .

يواصل المؤلف الاحتفاء بالكرم ، ولاشك ان الكرم جزء من هوية الامة فهو يدلل على كرم اخلاق الفرد ونكران الذات وتكافل المجتمع .

ويشدد في عدد من الأخبار الاخرى على صفة التدين بوصفها الوجه الاخر لهوية الأمة: مثل خبره (لا يعرض القرآن للمسألة)" قال: وقال لي ابن عباد: وكان يقرأ بالسبعة، فكنت أسمعه طول الليل يقرأ، وكان فقيراً، فإذا كان النهار، خرج يتصدق، فأسمعه ينشد على الطريق، الرقائق والزهديات، لا أسمعه يتصدق بغيرها.

فقلت له يوماً: يا فلان، أنت تحفظ القرآن، وأراك تتصدق بالرقائق، فكيف لا تقرأ وتتصدق كما يفعل الأضراء؟ فقال: والله لا أعرض القرآن للمسألة أبداً."[٤٠]

ان الصفة الثانية لهوية الامة هي التدين اذ يركز الخبر على احترام القران والحفاظ على قدسيته من خلال فعل ابن عباد الذي يقدم صورة لاحترام القران وعدم المتاجرة به لمعرفته بأهميته القران وتحلي ابن عباد بالتقوى ، والمعرفة والتقوى من ابرز صفات المسلم الصالح.

من دون أن يغفل العوامل الأخرى التي تسهم في بناء هوية الأمة مثل حضور العلماء كما يوضح ذلك خبر: (القاضي أبو الحسين بن أبي عمر يحزن لموت يزيد المائي) "حدثنا أبو الفضل محمد بن عبد الله بن المرزبان، الشيرازي، الكاتب، قال: حدثني أبو بكر الجعابي الحافظ، قال: دخلت يوماً على القاضي أبي الحسين بن أبي عمر، وهو مغموم حزين، فقلت له: لا يغم الله القاضي، فما الذي آذاه؟ فقال: مات يزيد المائي. فقلت: يبقي الله قاضي القضاة أبداً، ومن يزيد، حتى إذا مات اغتم عليه قاضي القضاة، هذا الغم كله؟ فقال: ويحك، مثلك يقول هذا، في رجل أوحد في صناعته، قد مات ولا خلف له، ولا أحد يقاربه في حذقه؟ وهل فخر البلد، إلا بكثرة كون رؤساء الصناع، وحذاق أهل العلم فيه؟ فإذا مضى رجل، لا مثل له في صناعته، ولا بد للناس منها، فهل يدل هذا، إلا على نقصان العالم، وانحطاط البلدان؟ ثم قال بعد ذلك: وأخذ يعدد فضائله، والأشياء الطريفة التي عالج بها، والعلل الصعبة التي زالت بتدبيره... قال: فقال لي أبو الحسين القاضي: فهل ببغداد اليوم، من له من الصناعة مثل هذا، أو ما يقاربه؟ ، فكيف لا أغتم بموت من هذا بعض حذقه"[٤١]

ان الخبر يقدم صورتين هامتين تتعلقان بالعلم ودوره في تشكيل هوية الامة:

الاولى: حضور العلماء الذين يتمتعون بالعلم الواسع والعقليات الكبيرة ويملكون تجربة تجعلهم نافعين للمجتمع.

الثانية: الاحترام الكبير الذي يكنه قاضي القضاة للعلماء اذ يشكل ذلك فهما للعلم ودوره في رقي الامة.

ان الاخبار الثلاثة تقدم تصورا واضحا لهوية الامة التي سعى المؤلف لإبرازها في كتابه فلا ترقى الامة الاحين تجتمع هذه العوامل القيم والدين والعلم في المجتمع وتؤكد حضورها اليومي في سلوك الافراد.

الآخــر:

ان أبسط تعريفات الاخر، وربما أكثرها وضوحاً انه ذلك المختلف عنا سواء أكان هذا الاختلاف في الجنس أو القبيلة أو المذهب أو الطبقة الاجتماعية او العرق او الدين الخ[٤٢]. وهوية الشخص تبدأ مع ظهور الآخر في حياته، ولا تتضح معالم هذه الهوية الا بوجوده ، وفي المجتمع العربي المسلم فان معالم الاخر كانت قد بدأت بالتشكل مع نزول الوحي، ومحاولة القران الكريم إنشاء مجتمع جديد يقوم على وفق قوانين جديدة وبهوية جديدة لذلك فقد ظل "الاخر دوما مثار اهتمام المدونة القرآنية نجد فيها اشارات كثيرة جدا عن "المؤمنين" و "المشركين" و"المسلمين" و"المنافقين" وعن "النصارى" و"اليهود" و"الصابئة"...الخ."[٤٣].

ومثلما يحدد اكتشاف الذات ضرورة لتحديد موقع الانسان وانتماءاته ، ومثلما يمثل الانتماء ضرورة لصياغة هوية الفرد ، فان وجود الاخر يمثل ضرورة لتشكل الهوية وتحديد معالمها، فالآخر "يبدأ بالتشكل تدريجيا لدى الانسان سواء أكان ذلك على مستوى الوعي او اللاوعي منذ أن يبدأ الانسان بالتعرف على ذاته"[٤٤]، ولأنه "لاتستقيم هوية للأنا من دون الآخر، فان الوعي يمر بالضرورة عبر الغير"[٤٥]، يصبح للآخر ضرورته التي تدفع الذات الى اكتشاف نفسها وانتمائها، ولقربه من الذات فانه "من الصعب فصل مفهوم الاخر ، في تعريفه عن مفهوم الذات ؛ ذاك انهما دائرتان متداخلتان جدا ، وذلك راجع في أساسه الى ان المفهومين يسهمان في تكوين بعضهما البعض"[٤٦].

وعلى الرغم من كون صورة الذات لا تكتمل الا بوجود الآخر الذي يمثل المرآة التي نعثر فيها على هويتنا[٤٧]، فان عملية تشكيل صورة الاخر تظل محفوفة بالمخاطر وتنقصها الموضوعية غالبا، اذ تتدخل الاهواء والمصالح في تشكيلها خاصة في زمن الازمة بما يخضع تشكل صورة

الاخر الى مجافاة الدقة والخضوع الى ما تنتقيه الانا من ملامحه لتعيد تشكيلها على وفق اهوائها، والذات ، وهي تشكل صورة الاخر، فانها تقع تحت ضغط "حيلتين للمراوغة: الاولى: حيلة الثقافة المسبقة التي تحكم هذا التشكل كليا أو جزئيا ، والثانية: حيلة الذات في عملية انتقائها لملامح صورة الاخر ، فقد تنتقي عناصر سلبية وتترك عناصر ايجابية ، وقد تضيف عناصرا أخرى غير موجودة أصلا لكي تجعل الصورة كما تحب وتشتهي"(٤٨).

ولذلك ظلت العلاقة مع الاخر تتراوح بين التقبل والمواجهة ، حسب مقدرة الذات على رسم صورة الاخر ، وظلت العلاقة مع الاخر تحت رحمة توجيه الشعور بالهوية وفهمها بصورة صحيحة أو خاطئة ، وفي الوقت الذي "يمكن أن يقدم الشعور بالهوية مساهمة مهمة لجعل العلاقة مع الاخرين قوية ودافئة مثل الجيران ، أو أعضاء الجماعة أو المواطنين أنفسهم من أبناء الوطن أو التابعين للديانة نفسها"(٤٩)، فانه يمكن للشعور ذاته أن يتسبب في قتل الاخر وتدميره ، فكثير "من النزاعات والأعمال الوحشية في العالم تتغذى على وهم هوية متفردة لااختيار فيها ، وفن بناء الكراهية يأخذ شكل إثارة القوى السحرية لهوية مزعومة السيادة والهيمنة تحجب كل الانتماءات الاخرى"(٥٠)، ان البطش بالآخر اعتمادا على تفوق هوية الأنا وخاصة في زمن الأزمات كان حاضرا في وعي الأمة منذ زمن بعيد ، ولذلك حاول العارفون وضع ضوابط تحمي الآخر وتعيد توجيه العلاقة معه بشكل ايجابي "وأشعر قلبك الرحمة للرعية ، والمحبة لهم ، واللطف بهم ، ولا تكوننَّ عليهم سَبُعا ضاريا تغتنم أكلهم، فانهم صنفان إمَّا أخ لك في الدين وإمَّا نظير لك في الخلق"(٥١). ولعلها واحدة من أعظم العظات التي قدمتها البشرية في النظر الى الاخر واعادة انتاج العلاقة معه.

واذا كان "سؤال الهوية يؤرق الانسان العربي نتيجة احتكاكه بالآخر"(٥٢)، فان أهم المحفزات على البحث عن الهوية في زمن تأليف النشوار ، بعد الآخر ، هو الأزمة التي كان يمر بها المجتمع آنذاك ، فهناك التهديد الخارجي الذي يشكله أعداء متربصون بالدولة ، وهناك الفتن التي تعصف بالدولة من الداخل وخاصة حالة تفتت المجتمع اداريا الى دويلات ومذهبيا الى فرق ومذاهب، ناهيك عن الصراع السياسي الذي كان يدور حول السلطة والحكم.

وهي ازمات تهدد وجود الفرد مثلما تهدد مستقبله و"حين يحس المرء أنَّ ثمة ما يهدد وجوده، يسرع الى تأكيد ذاته باحثا عن شيءٍ أصيل كامن في أعماقه ، يركن اليه كي يحس بالثقة والأمان والقوة لمواجهة الخطر، وبذلك تتشكل الهوية"(٥٣) ، فالإنسان، "لا يدرك أهمية هويته إلاَّ في

لحظة مأزومة يواجه فيها المختلف"[٥٤] ، وقد توفرت تلك الشروط كلها لدى القاضي التنوخي لحظة تأليف النشوار، فزمن المؤلف هو زمن الانكسارات والأزمات المتوالية وفي "الأزمات ، وبعد الانكسارات ، وعند المنعطفات التأريخية الحاسمة تظهر تيارات فكرية هدفها البحث عن الذات، ومراجعة ما حدث، بقصد إعادة تأهيل الأمة لمواجهة المصير بكفاءة عالية"[٥٥]، واعادة وعي الامة بهويتها كان من أهم دواعي التأليف.

ومثلما تعددت صور الانتماء تعدد الآخر في كتاب نشوار المحاضرة ، لكن أهم صورتين للآخر ظهرتا في الكتاب كانتا صورة الآخر المذهبي ، وهي الأشد وضوحا والأشد سلبية، وهو ما أسماه البحث هنا بالآخر الداخلي، أي داخل المجتمع/الأمة، والصورة الثانية صورة الآخر الخارجي، أي الذي يعيش خارج حدود الدولة وهو الروم والهند كما سيأتي:

أولاً : الآخر الداخلي :

وهو الاخر الذي يعيش داخل حدود الدولة، وكان المؤلف شديد القسوة على الاخر هنا، وربما كان ذلك بسبب الاحتكاك المباشر معه، وكثرة المشكلات والفتن بين الفرق والمذاهب التي سبقت الاشارة اليها فان بعضها يكفر بعضا ويستحل دمه، فضلا عن كون صورة الاخر أشد وضوحا مثل الصوفية[٥٦]، و الحنابلة[٥٧] ، والشيعة[٥٨] وغيرهم ، فهو ينقل خبرا عن الصوفية فيه الكثير من المبالغة، ويبدو أن الدافع لذكره ، على الرغم من عدم قناعته ، بمحتواه هو كون الصوفية آخر وله موقف واضح ضدهم:

(ابن خفيف شيخ الصوفية بشيراز يتكلم على الخطرات والوساوس) "أخبرني جماعة من أهل العلم: أن بشيراز رجلاً يعرف بابن خفيف البغدادي، شيخ الصوفية هناك، يجتمعون إليه، فيتكلم على الخطرات والوساوس، ويحضر حلقته ألوف من الناس، وأنه فاره، فهم، حاذق، وأنه قد استغوى الضعفى من الناس، إلى هذا المذهب. قال: فمات رجل صوفي من أصحابه، وخلف زوجة صوفية، فاجتمع النساء الصوفيات - وهن خلق كثير - ولم يختلط بمأتمها غيرهن.

فلما فرغوا من دفنه، دخل ابن خفيف، وخواص أصحابه - وهم عدد كثير - إلى الدار، وأخذ يعزي المرأة، بكلام من كلام الصوفية، إلى أن قالت: قد عزيت. فقال لها: ها هنا غير؟ فقالت: لا غير.

قال: فما معنى التزام النفوس، آفات الهموم، وتعذيبها بعذاب الغموم؟ ولأي معنى نترك الامتزاج، لتلقي الأنوار، وتصفو الأرواح، وتقع الإخلافات، وتنزل البركات؟ قال: فقالت النساء: إذا شئت.

قال: فاختلط جماعة الرجال، بجماعة النساء، طول ليلتهم، فلما كان سحراً خرجوا.
قوله: ها هنا غير؟ ، أي: ها هنا غير موافق في المذهب؟ فقالت: لا غير، أي ليس من مخالف.
قوله: نترك الامتزاج، كناية عن الوطء، من الممازجة.
وقوله: لتلقي الأنوار، على أصلهم إن في كل جسم نوراً إلهياً.
وقوله: الإخلافات، أن يكون خلف لكل من مات أو غاب من أزواجكن.
وهذا عندي عظيم، ولولا أن جماعة أخبروني، يبعدون عندي عن الكذب، ما حكيته ، لعظمه عندي، واستبعاد مثله أن يجري في دار الإسلام.
وبلغني أن هذا ومثله، شاع، حتى بلغ الأمير عضد الدولة، فقبض على جماعة منهم، وضربهم بالسياط، وشرد جماعة منهم، وشتت جموعهم، فكفوا."(٥٩)

يصور الخبر اهل التصوف بصورة المنحرفين الذين ينتهكون تعاليم الشريعة الاسلامية فيختلط الرجال بالنساء الى الصباح ليمارسوا ماحرم الله تعالى وبدل ان يحث شيخهم المرأة /الارملة التي توفي عنها زوجها على الصبر وتطبيق الشريعة بالاحتشام واتمام العدة يأمرهم بالامتزاج !!.

ويلاحظ موقفه كذلك في أخبار الحنابلة :

(الحنابلة يبنون مسجداً ضراراً) "أخبرني جماعة من البغداديين: إن الحنابلة بنوا مسجداً ضراراً، وجعلوه سبباً للفتن والبلاء. فتظلم منه إلى علي بن عيسى، فوقع في ظهر القصة:
أحق بناء بهدم، وتعفية رسم، بناء أسس على غير تقوى من الله، فليلحق بقواعده، إن شاء الله تعالى"(٦٠).

فيصور الخبر الحنابلة بانهم اهل فتن وانهم بنوا مسجدا ضرارا لأجل ذلك.

والشيعة كذلك :

(آذان رجل من القطيعة) "أخبرني أبو الفرج الأصبهاني. قال: سمعت رجلاً من القطيعة، يؤذن: الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمد رسول الله، أشهد أن علياً ولي الله، محمد وعلي خير البشر، فمن أبا فقد كفر، ومن رضي فقد شكر، ضرطت هند على ابن عمر، حي على الصلاة، حي على الفلاح، حي على خير العمل، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله.
وهذا عظيم مفرط، ونستغفر الله منه، ونستعيذ به من الجهل."(٦١)

على العكس من الخبرين السابقين الذين يصرح فيهم المؤلف باسماء الفرق فانه هنا يوري عن الشيعة اذ ينتقدهم بقسوة من دون ان يصرح باسمهم لكنه ينقل مايدل عليهم من خلال

الاذان الذي يوظفه الخبر للمساس بهم فهم يدخلون في الاذان عبارات تدعو الى الضحك والسخرية.

تجتمع الاخبار الثلاثة في انها توجه نقدا قاسيا للآخر الصوفية والحنابلة والشيعة حيث يقدمها بهويات مقرونة بما يشين على عكس المعتزلة الذين يحملون هوية نقية.

ثانياً: الآخر الخارجي:

ان أهم ما يُلاحظ هنا هو ان الاخر الخارجي لم تكن صورته واضحة وضوح صورة الاخر الداخلي ، ولذلك أسباب عديدة أهمها الانشغال بالصراعات الداخلية التي تسهم في وضوح الاخر الداخلي الذي يعيش بالقرب منك وعدم الاحتكاك المباشر بالاخر الخارجي ويمثل الروم والهند وجهين للاخر الخارجي اهتم بهما المؤلف:

١. الروم:

وقد القت الحروب المستمرة مع الروم بظلالها على صورة الاخر الرومي ففي خبر: (أبن رزق الله التاجر يوقف في بلاد الروم أكسية لتدفئة أسارى المسلمين) يورد ذكر الاخر (الروم) الذين لا يعاملون الأسارى بإنصاف الا في حالة قبضهم الثمن والنقد يتجاوز الاخر المحارب ليصل الى الاخر في الدين (الراهب): حدثني أبو محمد، عبد الله بن أحمد بن داسه البصري، قال: حدثني علي بن إبراهيم بن حمادى القاضي: إن بعض مشايخ العرب أخبره عن رجل المسلمين، أسر، ثم رجع إلى دار الإسلام، قال: لما حملنا إلى بلد الروم مرت بنا شدائد، فحصلنا عدة ليال لا ننام من البرد، وكدنا نتلف، ثم دخلنا قرية، فجاءنا راهب فيها بأكسية وقطف ثقيلة دفية، فغطى جميع الأسارى، كل واحد بواحدة، فعشنا تلك الليلة، فأقامونا في تلك القرية أياماً، فكانت سبيلنا هذه، ثم نقلونا إلى أخرى، فعادت حالنا في العري والبرد إلى الأولى. فسألنا عن السبب في ذلك، فقالوا: إن رجلاً ببغداد من التجار يقال له ابن رزق الله، صهر ابن أبي عوف، توصل إلى أن حصلت له هذه الأكسية والقطف عند الراهب، بغرامات مال جليل، وسأله أن يغطي بها من يحصل في قريته من أسارى المسلمين، وضمن له أن ينفق على بيعة في بلد الإسلام بإزاء هذا في كل سنة شيئاً ما دامت الأكسية محفوظة للأسارى، فالراهب يفعل ذلك في هذه القرية، وما قبلها وما بعدها ليس فيها شيء من هذا. فأقبلنا ندعو لابن رزق الله كما نفحنا البرد، ولحقتنا الشدة، ونحن لا نعرفه.

ان اهم ما يلاحظ على الخبر هو:

١- عدم وضوح صورة الاخر فالذي ينقل الواقعة التي تتشكل على وفقها صورته اسير شارك في الحرب ضده.
٢- ان الصورة سلبية فالآخر يعامل الاسرى بقسوة تصل حد التلف.
٣- على الرغم من كل هذا تظل عملية التأثير والتواصل مع الاخر ممكنة ، والدليل عليها ما فعله التاجر ابن رزق الله.

٢: الهند:

وتختلف صورة الاخر الهندي عن الرومي لعدم وجود حروب معهم بالاضافة الى ان للهندي حضوره بوصفه تاجرا يقدم منفعة للمجتمع فضلا عن كل ذلك ظل للشرق سحره الذي يؤثر في تشكيل صورته بوصفه منبع الحكمة ففي خبر: (ملك الهند يحاور الحكماء من رعيته): "حدثني القاضي أبو بكر أحمد بن سيار، قال: حدثني شيخ من أهل التيز ومكران، لقيته بعمان، ووجدتهم يذكرون ثقته، ومعرفته بأمر البحر، وحدثني القاضي، قال: حدثني هذا الشيخ: إن رجلاً بالهند من أهلها حدثه: أن خارجياً، خرج في بعض السنين، على ملك من ملوكهم، فأحسن التدبير، وكان الملك معجباً برأيه، مستبداً به فأنفذ إليه جيشاً، فكسره الخارجي، فزحف إليه بنفسه. فقال له وزراؤه: لا تفعل، فإن الخوارج تضعف بتكرير الجيوش عليها، والملك لا يجب أن يغرر بنفسه، بل يطاول الخارجي، فإنه لا مادة له يقاوم بها جيشاً بعد جيش، إذا توالت عليه جيوش الملك. فلم يقبل، وخرج بنفسه، فواقعه، فقتله الخارجي، وملك داره ومملكته، فأحسن السيرة، وسلك سبيل الملوك.

فلما طال أمره، وعز ذكره، وقوي سلطانه، جمع حكماء الهند، من سائر أعماله، وأطراف بلدانه، وكتب إلى عماله أن يجتاز أهل كل بلد، مائة منهم، من عقلائهم وحكمائهم، فينفذونهم إليه، ففعلوا.

فلما حصلوا ببابه، أمرهم باختيار عشرة منهم، فاختاروا، فأوصل العشرة، وأوصل من أهل دار المملكة عشرة، وقال لهم: يجب على العاقل، أن ينظر عيوب نفسه فيزيلها، فهل ترون في عيباً، أو في سلطاني نقصاً؟ فقالوا: لا، إلا شيئاً واحداً، إن أمنتنا قلناه. قال: أنتم آمنون. قالوا: نرى كل شيء لك جديداً، يعرضون إنه لا عرق له في الملك. فقال: فما حال ملككم الذي كان قبلي؟ قالوا: كان ابن ملك. قال: فأبوه؟ قالوا: ابن ملك. قال: فأبوه؟ إلى أن عدد عشرة أو أكثر، وهم يقولون، ابن ملك، فانتهى إلى الأخير. فقالوا: كان متغلباً. قال: فأنا ذلك الملك الأخير، وإن طالت أيامي، مع إحساني السيرة، بقي هذا الملك بعدي، في ولدي وولد ولدي، فصار لأولاد

أولادهم من العرق في الملك، مثل ما كان لملككم الذي كان من قبلي. فسجدوا له، وكذا عادتهم إذا استحسنوا شيئاً، ولزمتهم حجة، وانصرفوا، فإزداد بذلك الملك توطداً له.

قلت أنا للقاضي: هذا شيء قد سبقت العرب إليه في كلمتين، استغني بهما عن هذا المثل الطويل العجمي. فقال: ما هما؟ فقلت: روت العرب أن رجلين تفاخرا، فقال أحدهما لصاحبه: نسبي مني ابتدأ، ونسبك إليك انتهى."[٦٢].

يلاحظ على الخبر:

١- وضوح صورة الاخر الهندي التي تتشكل من عنصري المُلك والحكمة ، وكيف يتواضع المَلك باستماعه الى مستشاريه.

٢- على الرغم من ذلك وتوافر حكمة الهنود الا ان الخبر لا ينسى ان يثبت تفوق العرب الذين يجمعون بين الحكمة والبلاغة.

٣- لا يفوت الخبر فرصة الاشتباك مع السلطة والتعريض بها ، فالملك الهندي يهلك لانه لم يستمع لصوت المستشارين ، بما يوحي بان على السلطان ان لا ينفرد برايه وعليه العودة الى ذوي العقل والتجارب لمشاورتهم.

الخاتمة :

حاول البحث قراءة أثر الهوية في بناء الخبر في مؤلف من مؤلفات السرد العربي القديم وهو (نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة) للقاضي التنوخي ، وهي محاولة تعرضت للتعريف بالهوية من خلال قراءة وجهيها الانتماء والاخر ، وبينت كيف ان الهوية تهيمن على عمل المؤلف وتؤدي دورا هاما في عملية انتقائه الأخبار بما يخدم انتماءاته على تعددها ، وكيف يوجه أخباره للنيل من الاخر الذي يتعدد بتعدد دوائر الانتماء ، واشار البحث الى ان للآخر قسمين: الاخر الذي يعيش داخل حدود المجتمع الاسلامي ، والاخر الاجنبي الذي يمثل دولا او حضارات اخرى ، واذا كان الاخر الداخلي يختلف عن الاخر الخارجي كونه دائم الاحتكاك بالانا فان الاخر بعيدا ومن الصعوبة الاقتراب منه دائما وذلك فرض ان تكون صورة الاخر الداخلي اكثر وضوحا بينما ظلت صورة الاخر الخارجي ضبابية وغير واضحة ، غير ان لمفارقة الكبرى هنا هي ان الاخر الداخلي على الرغم من وضوح صورته وقربه والتقائه مع الانا في الدائرتين الكبريين الاسلام والعربية الا ان التعامل معه كان قاسيا بينما كان التعامل مع الاخر الخارجي اكثر تسامحا .

الهوامش:

(١) ينظر: أبو الحسن علي بن أبي الكرم المعروف بابن الأثير، الكامل في التاريخ ، راجعه وصححه د.محمد يوسف الدقاق ، دار الكتب العلمية بيروت ،ط١، ١٩٨٧، ج٥ ص٢١

(٢) أراق سعيد، مدارات المنفتح والمنغلق في التشكلات الدلالية والتأريخية لمفهوم الهوية ،عالم الفكر، مجلد٣٦/ عدد٤/ابريل يونيو٢٠٠٨،ص٢١٥

(٣) احد الامثلة على ذلك مايرويه ابن الأثير: "لما مات الراضي بالله بقي الأمر في الخلافة موقوفا انتظارا لقدوم ابي عبد الله الكوفي من واسط ... فورد كتاب بجكم مع الكوفي لأمر فيه بان يجتمع مع ...ويشاورهم الكوفي فيمن يرتضيه للخلافة" . الكامل في التاريخ ،م.س: ج٧ ،ص١٥٢

(٤) علي حرب ، خطاب الهوية سيرة فكرية ، منشورات الاختلاف ،الجزائر، ط٢/٢٠٠٨، ص٤١

(٥) م.ن:ص٤٢

(٦) ينظر م.ن: ج٧،ص١٦١، في أحداث سنة٣٣٠ هج. ومافعله البريدي عند استيلائه على بغداد.

(٧) أراق سعيد، مدارات المنفتح والمنغلق في التشكلات الدلالية والتأريخية لمفهوم الهوية ، م.س:ص٢١٥

(٨):د. الزواوي بغورة ، الهوية والعنف في الخطاب الثقافي الجزائري، مجلة العربي الكويتية ، ع٥٩٩/ اكتوبر٢٠٠٨، ص٢٥

(٩) المعجم الفلسفي ،الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ،١٩٨٣،ص٢٠٨

(١٠) مازن مرسول محمد ،سوسيولوجيا الأزمة. المجتمع العراقي أنموذجا. دراسة نظرية، اطروحة دكتوراه، جامعة بغداد، كلية الآداب،٢٠٠٨،ص٢٤

(١١) د. علي وتوت ،في السؤال السوسيولوجي للهوية عراق واحد...عن أي عراق نتحدث، مجلة مسارات/ع١/س٣/ربيع٢٠٠٧،ص٤٣

(١٢) دنيس كوش، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية ، ترجمة: د. منير السعيداني ،المنظمة العربية للترجمة، بيروت/لبنان،ط١/مارس٢٠٠٧،ص١٥٤

(١٣) م.ن:ص١٥٣

(١٤) عبدالله ابراهيم ، السردية العربية ، موسوعة السرد العربي ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، ط١/٢٠٠٥: ص٥٦٢

(١٥) جعفر نجم نصر العقُيلي، سوسيولوجيا الذات والآخر في الثقافة العربية الإسلامية – دراسة تحليلية ،اطروحة دكتوراه ،كلية الآداب ، جامعة بغداد ،٢٠٠٥ ، ص٣٠

(١٦) الحجرات:١٣

(١٧) د. مشاري بن عبدالله النعيم ،الهوية والشكل المعماري: الثابت والمتحول في العمارة العربية، عالم الفكر/ع٣/مجلد٣٧/٢٠٠٩، ص٢١٩-٢٢٠

(١٨) أراق سعيد، مدارات المنفتح والمنغلق في التشكلات الدلالية والتأريخية لمفهوم الهوية ،م.س:ص٢١٦

(١٩) أمارتيا صن، الهوية والعنف، ترجمة: سحر توفيق، سلسلة عالم المعرفة، اصدار المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،٣٥٢/يونيو٢٠٠٨ص١٧

(٢٠) م.ن:ص١٨

(٢١) ول ديورانت ، قصة الفلسفة ،ترجمة فتح الله المشعشع ، مكتبة المعارف بيروت، ط١/٢٠٠٤، ص١٢

(٢٢) أراق سعيد، مدارات المنفتح والمنغلق في التشكلات الدلالية والتأريخية لمفهوم الهوية ،م.س:ص٢١٩

(٢٣) محمد باقر المجلسي ، بحار الانوار ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ط٣/١٩٨٣،ج٧٧:ص٢٦٧

(٢٤) النحل : ٧٨

(٢٥) د. مشاري بن عبدالله النعيم ،الهوية والشكل المعماري: الثابت والمتحول في العمارة العربية، م.س: ص٢١٩

(٢٦) أمارتيا صن، الهوية والعنف ، م.س: ص٣٨

(٢٧) م.ن: ص٢٠-٢١

(٢٨) د. مشاري بن عبدالله النعيم ،الهوية والشكل المعماري: الثابت والمتحول في العمارة العربية، م.س: ص٢٢١

(٢٩) د. ماجدة حمود ، إشكالية الأنا والآخر (نماذج روائية عربية)، سلسلة عالم المعرفة ، اصدار المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،٣٩٨/ مارس ٢٠١٣ ص١٥

(٣٠) التنوخي ، نشوار المحاضرة ، م.س: ج١/خ١٦/ص٤٧ ، ولكليهما ترجمة في الصفحة ذاتها.

(٣١) م.ن: ج١/خ١٤/ص٤٢ و ج١/خ٧٨/ص١٥٣ ، وترجمته في ج١/ص٤٢

(٣٢) ينظر: م.ن: ج١/خ١٢٩/ص٢٤٠ و ج٢/خ١/ص٩ و ج٢/خ٢/ص١٢ وج٢/خ٧٤/ص١٤٢ وغيرها الكثير جدا ، وترجمته في ج٢/ص١٤٢

(٣٣) م.ن: ج٢/خ٤٨/ص١٠٠

(٣٤) م.ن: ج١/خ١٢٩/ص٢٤٥

(٣٥) م.ن:ج٢/خ١٠٧/ص٢٠٧

(٣٦) م.ن:ج٢/خ١٧٩/ص٣٤٢

(٣٧) م.ن:ج٢/خ١٠٩/ص٢٠٩ والمقصود بالكلام هنا هو علم الكلام (وهو العلم الذي يبحث عن إثبات أصول الدين الاسلامي بالأدلة التي تفيد اليقين):عبد الهادي الفضلي/خلاصة علم الكلام/دار التعارف/ سوريا/ ١٩٨٨/ ص٩، وقوله بكينا الكلام يدلل على مكانة الجبائي في هذا العلم حيث كان المعتزلة من أهم الفرق الكلامية التي ظهرت في التاريخ الاسلامي.

(٣٨) م.ن:ج٢/خ١٠٨/ص٢٠٨

(٣٩) م.ن: ج٣/خ١٥٧/ص٢٥١

(٤٠) م.ن:ج٣/خ٤٤/ص٦١

(٤١) م.ن: ج٣/خ١٥١/ص٢٣٣

(٤٢) ينظر: د. ماجدة حمود ، إشكالية الأنا والآخر ، م.س: ص١٧

(٤٣) عبدالله ابراهيم ، المحاورات السردية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط٢٠١٢/١:ص٧

(٤٤) محمد الخباز صورة الاخر في شعر المتنبي (نقد ثقافي) ، لبمؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت لبنان ،ط٢٠٠٩/١، ص٢٢

(٤٥) علي حرب ، خطاب الهوية ، م.س: ص٤٣

(٤٦) صورة الاخر ،م.س: ص٢١

(٤٧) ينظر: عبدالله ابراهيم ، المحاورات السردية ، م.س: ص٧

(٤٨) صورة الاخر ، م.س: ص٢٦

(٤٩) أمارتيا صن، الهوية والعنف ، م.س: ص١٨

(٥٠) م.ن: ص١١

(٥١) نهج البلاغة ،اختيار الشريف الرضي من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) ، شرح محمد عبدة، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ، لبنان، ط٢٠٠٣/١: ص٥٧٢ ، والفقرة جزء من وصية الأمام علي بن أبي طالب(ع) الى مالك الأشتر حين ولاه مصر.

(٥٢) د. ماجدة حمود ، إشكالية الأنا والآخر (نماذج روائية عربية)،م.س:ص١٣

(٥٣) م.ن:ص١٥

(٥٤) م.ن:ص١٣

(٥٥) جلال كاظم القيسي ، ثنائية التراث والهوية ،أعمال المؤتمر الفلسفي السابع فلسفة الحوار رؤية معاصرة، بيت الحكمة، بغداد العراق،٢٠٠٨،ص٤١٠

(٥٦) ينظر: م.ن:ج١/خ٤٨/ص٩٩

(٥٧) ينظر: م.ن:ج٢/خ٦٩/ص١٣٤

(٥٨)ينظر:م.ن: ج٢/خ٦٨/ص١٣٣

(٥٩) م.ن:ج٣/خ١٤٨/ص٢٢٨

(٦٠) م.ن:ج٢/خ٦٩/ص١٣٤

(٦١) م.ن: ج٢/خ٦٨/ص١٣٣

(٦٢) م.ن: ج١/خ٥٥/ص١١٠

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

ابراهيم (عبد الله)

. المحاورات السردية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط١/٢٠١٢

. موسوعة السرد العربي ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط١/٢٠٠٥

ابن الأثير (أبو الحسن علي بن أبي الكرم)

. الكامل في التاريخ ،راجعه وصححه د.محمد يوسف الدقاق ، دار الكتب العلمية بيروت ،ط١، ١٩٨٧

التنوخي (أبوعلي المحسن بن علي)

. نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ، تحقيق عبود الشالجي،دار صادر، ط٢/١٩٩٥

(المجلسي) محمد باقر

. بحار الانوار ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ط٣/١٩٨٣

حرب (د. علي)

. خطاب الهوية سيرة فكرية ، منشورات الاختلاف ،الجزائر ، ط٢/٢٠٠٨،

حمود (د. ماجدة)

. إشكالية الأنا والآخر (نماذج روائية عربية)، سلسلة عالم المعرفة ، اصدار المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،٣٩٨/ مارس ٢٠١٣

الخباز (محمد)

. صورة الاخر في شعر المتنبي (نقد ثقافي)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان ،ط١/٢٠٠٩.

ديورانت (ول)

. قصة الفلسفة ،ترجمة فتح الله المشعشع ، مكتبة المعارف بيروت، ط١/٢٠٠٤.

الرضي (الشريف)

. نهج البلاغة ،المختار من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(ع)،شرح محمد عبدة، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ،لبنان ، ط١/٢٠٠٣

صن (أمارتيا)

. الهوية والعنف، ترجمة: سحر توفيق، سلسلة عالم المعرفة، اصدار المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،٣٥٢/يونيو٢٠٠٨.

القيسي (جلال كاظم)

. ثنائية التراث والهوية ،أعمال المؤتمر الفلسفي السابع فلسفة الحوار رؤية معاصرة، بيت الحكمة، بغداد العراق،٢٠٠٨.

كوش (دنيس)

. مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية ، ترجمة: د. منير السعيداني ،المنظمة العربية للترجمة، بيروت/لبنان،ط١/مارس٢٠٠٧

مجمع اللغة العربية جمهورية مصر العربية

. المعجم الفلسفي ، تصدير د. ابراهيم مدكور،الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ١٩٨٣

الرسائل العلمية:

العقُيلي (جعفر نجم نصر)

. سوسيولوجيا الذات والآخر في الثقافة العربية الإسلامية – دراسة تحليلية ،اطروحة دكتوراه ،كلية الآداب ، جامعة بغداد ،٢٠٠٥.

محمد (مازن مرسول)

. سوسيولوجيا الأزمة . المجتمع العراقي أنموذجا. دراسة نظرية، اطروحة دكتوراه، جامعة بغداد، كلية الآداب،٢٠٠٨.

المجلات:

(مجلة مسارات) العراقية

. د.علي وتوت ،في السؤال السوسيولوجي للهوية عراق واحد...عن أي عراق نتحدث ، ع ١/س ٣/ربيع ٢٠٠٧.

(عالم الفكر) الكويتية

. أراق سعيد، مدارات المنفتح والمنغلق في التشكلات الدلالية والتأريخية لمفهوم الهوية ، مج ٣٦/ ع ٤/ابريل يونيو٢٠٠٨.

. د.مشاري بن عبدالله النعيم، الهوية والشكل المعماري: الثابت والمتحول في العمارة العربية ، مج ٣٧/ع ٣ /٢٠٠٩.

(مجلة العربي) الكويتية

. د. الزواوي بغورة ، الهوية والعنف في الخطاب الثقافي الجزائري ، ع٥٩٩/ اكتوبر٢٠٠٨